لقـــــد زارَ الجزيـــــرةَ منـــــك بحـــــرٌ
يَمـــــدُّ فلـــــيسَ نعـــــرفُ منـــــهُ جـــــزرا
أعـــــدت لهـــــا بعهـــــدك عهـــــدَ مُوســـــى
سميِّـــــكَ فهـــــي تتلـــــو منـــــهُ ذِكـــــرا
أقمـــــتَ جـــــدارها وأفـــــدتَ كنـــــزاً
"ولـــــو شِـــــئتَ اتخـــــذتَ عليـــــهِ أجـــــرا[1]

وهو اقتباس من قصة موسى والخضر ـ عليهما السلام ـ في قوله تعالى: "فانطلقا حتّى إذا أتيا أهل قريةٍ استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقضّ فأقامه قال لو شئت لاتخذت عليه أجراً"[2].

وهكذا يرد الاقتباس في عدد كبير من قصائد شعراء الأندلس.[3]

الخاتمة

مما لا ريب فيه أن الدراسة كانت طويلة، وأن العمل فيها شاق ومضن، وذلك لأن طبيعة البحث فيها تقتضي التقصيّ عن القصص القرآني في الشعر عبر ثمانية قرون من الزمن، وهي مادة علمية لا تشكل إلا جزءاً يسيراً من القصة في الشعر،

---

1 ابن الخطيب: ديوان الصيب والجهام ٥٤٣ (ق٢٨٢).

2 سورة الكهف: الآية ٧٧.

3 ينظر: الثعالبي: يتيمة الدهر ١٣/٢ والرمادي: شعره ١٣٦ (ق١٤٠) وابن خاقان: مطمح الأنفس ٥٠ وابن بسام: الذخيرة ق٥٠٦/١/١ وابن دراج: ٢٣٢ (ق٧٠) والحميري: البديع ١٤٤ والعماد الأصفهاني خريدة القصر ق٢٤٧/٢/٤وابن اللبانة الداني: شعره ١٠٤ (ق٨٩) وابن سعيد: رايات المبرزين ٨٦ وابن الآبار: المقتضب ١٢٤ وابن سهل: ديوانه ٢٢٥ (ق٩٣) وابن الخطيب: الإحاطة ٣٥٧/١، ٤٧٩ وابن خاتمة الأنصاري: ديوانه ٨٨، تحقيق د. محمد رضوان الداية، ط وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق ١٩٧٢م. وابن الخطيب: ديوان الصيب والجهام ٤٥٨ (ق٢١٣)، ٦٠٤ (ق٣٢٠) والمقري: نفح الطيب ٥٤٦/٣، ٤٧٤/٦ وابن الخطيب: اللمحة البدرية ٩٨ وابن الخطيب: أعمال الأعلام ٣٠١.

ويشترط في هذه المادة أن يكون لها وجود في القرآن الكريم. ولكن هذه الصعوبات لم تقف عائقاً أمام السعي للوصول إلى نتائج تفيد العلم والبحث العلمي.

وبعد أن أنجزت ما أنجزته من متطلبات هذا البحث العلمي ـ بعون الله تعالى ـ أراني في حاجة إلى الوقوف عند بعض النتائج المهمة عسى أن تكون علامات مضيئة تنير الطريق أمام إخواننا من الدارسين والباحثين. وفيما يأتي بعض هذه النتائج:ـ

إن القصة القرآنية في الزهد قصة تقوم على التمثيل، والتمثيل تشبيه ووجه الشبه فيه يحتاج إلى تأويل عقلي، ولذلك لا يستلزم في الحدث أن يقع فعلاً، وفي الأشخاص أن يكونوا حقيقة، ولكن وجود مثل هذه الأحداث وهؤلاء الأشخاص في الحياة ممكن، لذلك كان تمثيل الحياة الدنيا بالبحر، وتمثيل الإنسان بالزبد يكفي لكي يتبين منها موقفه من هذه الحياة.

وإن القصة القرآنية في تمثيل الحياة الآخرة تقوم على تجسيم الأحداث وتحويلها إلى أحداث مثيرة للفزع والهلع، ويأتي ذلك من نقل الحدث من الزمن المستقبل إلى الزمن الحاضر، ودفع الزمن الحاضر إلى الماضي البعيد، فتدب الحياة في الأحداث، ويشعر الإنسان إزاءها بالخوف والرهبة، وأنه لا محالة أمام موقف عصيب من السؤال عن أعماله، والمحاسبة عليها، فتتكون بذلك صور رهيبة تردع النفس عن السوء وتمنعها من اقتراف المعاصي والذنوب.

تعود جميع قصائد التصوف تقريباً إلى قصتين من قصص القرآن الكريم هما: قصة إسراء النبي محمد ـ (صلى الله عليه وسلم) ـ ومعراجه إلى السموات السبع، وإيناس النبي موسى ـ عليه السلام ـ ناراً وذهابه إلى الوادي المقدس ليقتبس منها جذوة، ومن هاتين القصتين استمد شعراء التصوف قصص الإسراء الروحي عبر المقامات الصوفية لرؤية الأنوار الإلهية.

هناك بعض القصائد الصوفية قد تأخذ جانباً معيناً من الحدث في قصة الإسراء الروحي، مما يوهم الباحث أنها قد لا تعود إلى هذه القصة، ولكن المتأمل فيها، والمطلع على القصة كاملة وأحداثها يستطيع أن يفهم أن هذا الجزء يعود إلى القصة الأساس فيربطه بها، ولكنني أستطيع أن أشير ـ بعد اطلاعي على أغلب

الدراسات ـ إلى أن أحداً من الباحثين لم يستطع أن يدرك أن هذه القصص وأجزاءها إنما تعود إلى تينك القصتين من قصص القرآن الكريم.

القصة في الأغراض الشعرية كالمديح والغزل والوصف وغيرها قصتان، الأولى قصة واقعية الأحداث فيها واضحة ومرتبة، والأشخاص معروفون، قد يكون منهم الشاعر أو الممدوح أو الحبيب أو المهجو أو غيرهم، وقد يرد فيها ذكر الزمان والمكان. والقصة الثانية هي القصة القرآنية التاريخية التي يستشهد بها الشاعر محتجاً على صدق قصته، وموضحاً لها، ولن تتأتى له القدرة على الربط بينهما ما لم يكن متمكناً من الاطلاع على القصص القرآني اطلاعاً واسعاً.

اقتبس الشعراء من القصص القرآني المعاني النبيلة التي تتميز بها كل قصة من القصص والمرسلون في الدعوة إلى عبادة الله الواحد، والمعجزات التي تمت على أيديهم بقدرة الله تعالى والابتلاءات التي تعرض لها الأنبياء لمعرفة مدى قدرتهم على تحمل الشدائد والصبر عليها. كل هذه تشكل معاني متنوعة يستمد منها الشعراء ما يناسب موضوعاتهم.

تختلف أساليب الشعراء في عرض القصة القرآنية باختلاف ثقافة الشاعر أولاً، واختلاف الموضوعات المطروقة ثانياً، واختلاف طبيعة القصة القرآنية ثالثاً، فقد نجد قصة يطغى عليها الحوار فيكسبها قدراً من الحيوية، وأخرى يسودها السرد الوصفي الذي يحرك خيال السامع نحو الأفق، وقصة تتكامل أجزاؤها من حدث وأشخاص وزمان ومكان، وأخرى فقيرة من ذلك، أحداثها رتيبة، وأشخاصها مقيدون، فينعدم فيها الزمان والمكان.

تتكون القصة القرآنية من صور عديدة، وهذه الصور إما أن تكون خيالية لا حدود لها من الاتساع والتهويل، مما يجعل السامع يحلّق بخياله في أجوائها كما في صور قصائد الزهد والتصوف. وإما أن تكون حسية تتجسد فيها صور الحياة، وهي صور معروفة لا تختلف إلا في طريقة عرضها، ولعله يراد من هذه الصور أن تحقق هدفاً معيناً للشاعر كما في صور الأغراض الشعرية كالمديح والغزل وغيرهما.

توصل الشاعر إلى الكشف عن طرق ووسائل يتم بواسطتها نقل القصة القرآنية إلى شعره، استقاها من البلاغة العربية بعلومها الثلاثة: المعاني والبيان والبديع، وكان إبداعه ينحصر في كيفية اختيار الوسيلة التي تناسب القصة القرآنية يريدها أن تنفذ إلى قصيدته.

وأخيراً أرجو أن أكون قد وفقت في الكشف عن جوانب مهمة من جوانب هذه الدراسة وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

obeikan.com